﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾ [يونس: 56]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَنْ خلقَ وملَكَ بالحقِّ؛ أحيا، وأهلك بالحقِّ

بعد أنْ قرَّر سبحانه أنَّه لا شيءَ خارج عن ملكه، وأنَّه تامُّ القدرة - لأنَّه لا منجيَ من عذابه - شاملُ العلم لقضائه بالعدل، صادقُ الوعد؛ لأنَّه لا حامل له على غيره؛ أثبتَ تفرُّده بأنَّه يحيي ويميت، وأنَّه قادرٌ على الإعادة، كما قدرَ على الابتداء، وأنَّ الرَّدَّ لا يكون إلّا إليه، فنبَّه على ذلك بقوله: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـذي يُحيي ويُميت سبحانه في دنياه يُحيي ليُعيد في أُخراه

إنَّ اللّه هو المحيي المميت، لا يتعذَّر عليه فعلُ ما أرادَ فعله من إحياء الموتى، ومنهم هؤلاء المشركون إذا أراد إحياءهم بعد مماتهم، ولا إماتتهم إذا أراد ذلك، وهم إليه يصيرون بعد مماتهم، فيعاينون ما كانوا به مكذِّبين من وعيدِ اللّه وعقابه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّة الفصلِ في: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ دلَّ على كمالِ قدرتِه ونفاذِ وعده

جاءت هذه الآية: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بيانًا مستأنفًا لِما قبلها بالإيجاز[2]؛ لذا لم يذكر البيانُ الإلهيُّ العاطف بينها وبين الآية السابقة: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنَّ بين الجملتين شبهَ كمالِ اتصال؛ وذلك بعد أنْ قرَّر سبحانه أنَّه لا شيءَ خارج عن ملكه، وأنَّ وعدَه بيوم القيامة حقٌّ، كأنَّ سائلًا سأل: ما الدليلُ على ذلك؟ فجاء الجواب في قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: إنَّه قادرٌ على الإعادة، كما أنَّه قادرٌ على الابتداء.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/143.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/327.

غرضُ تقديمِ المسند إليه ومجيء المسند فعلًا:

أصلُ الكلام فيما تقتضيه صنعةُ الكلامِ لا بيانه وبلاغته: يحيي هو ويميت، ولكنَّ البيان الإلهيَّ عَدَلَ عن ذلك في قوله: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وابْتَدأ بالمسند إليه ﴿هُوَ﴾ فقدَّم الضمير ﴿هُوَ﴾ ليحوِّل الجملةَ من فعليَّةٍ إلى اسميَّة، خبرُها فعلٌ مضارع، فأفاد ذلك أمرين:

اللـه وَحـدَه هـو المتـصَـرِّفُ بـالإحـيـاءِ والإماتةِ، وفعلُه متـجـدِّدٌ غـيرُ منقطعٍ

الأوّل: الاختصاص: إذ إنَّه بتقديم الضمير ﴿هُوَ﴾ وتكريره على تقدير فاعل ﴿يُحۡيِۦ﴾ صارَ المعنى حَصْر الإحياءِ والإماتة باللّه، وأنَّ ذلك مُحقَّقٌ مؤكَّدٌ، والمعنى: اللّه وَحدَه هو المتصَرِّفُ بالإحياء والإماتة، فلا يتعذَّرُ عليه إحياءُ المشركين وغيرهم، ولا إماتَتُهم؛ إذا أراد ذلك[1].

الآخر: الاستمرار التجدُّدي؛ لمجيء الخبر ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بصيغة المضارع، والمعنى: إحياءُ اللّه لخلقه، وإماتَتُه لهم أمرٌ متجدِّد غير منقطع.

نكتةُ إيثار الفعل المضارعِ على الاسم: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

صورةٌ متجدِّدةٌ لـخَـلْـقِ المـوتِ والحياةِ تبعثُ في الـنَّـفـس الـخـوفَ منه سبحانه والرَّجاء

آثر القرآنُ التَّعبيرَ بالمضارع على الاسم في قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ولم يقلْ: (هو المحيي والمميت)؛ لأمرين:

الأول: النَّصُّ على تجدُّد الإحياء والإماتة واستمرارهما، أي: الإحياء والإماتة متجدِّدة مستمرَّةٌ منه سبحانه، وليس مجرَّد ثبوتهما كما لو عبَّر بالاسم (المحيي والمميت)، وكان الخبر في الجملة الاسميَّة اسمًا.

الآخر: إفادة حكاية حال الإحياء والإماتة، أي: يثير في المخيَّلة صورةً مستمرَّة متجدِّدة لخَلْق الحياة والموت، بما يُظهر عظمةَ قدرةِ اللّه وكمالَها، ويكون دليلًا مستمرًّا على ذلك.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/193.

دلالةُ الواو في: ﴿وَيُمِيتُ﴾:

الإحياءُ والإماتةُ من أفعالِ الله المتقابلة في ذواتِها المترابطة في مآلاتها

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَيُمِيتُ﴾ عاطفةٌ؛ والمعطوف عليه ﴿يُحْيِۦ﴾، والمعنى العام الذي يجمع المعطوف والمعطوف عليه هو أنَّ كليهما من الأفعال التي اختصَّ بها الله، ولا يقدرُ عليها أحدٌ سواه، قال تعالى مبيِّنًا عجزَ الآلهة المزعومة عن الإحياء والإماتة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: 40]، فهما من المعاني المتقابلة، وإنْ كان الإحياءُ يختلفُ عن الإماتة؛ فالإحياءُ لا يكون إلّا لله تعالى، أمّا الإماتة؛ فهي له وحده، لكنَّها قد تصدر عن غيرِه سبحانه بعد إذنه، فعلى التَّحقيق مردُّها إليه.

نكتةُ تقديم الإحياءِ على الإماتة في: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

تقديمُ الإحياءِ باعتبارِ ما يشهده النّاس في عالمِ الشَّهادةِ

كما أنَّ عطفَ الإماتة على الإحياءِ باعتبارِ أنَّ الإحياءَ كان ممّا يشهدُه النّاس أوَّلًا، ثم تكونُ الإماتةُ، فتقديمُ الإحياءِ باعتبار الشُّهود في عالم الشَّهادةِ، فهو من بابِ الامتنانِ على العبادِ بما يشهدونه، وإلّا فإنَّ الموت سابقٌ للإحياءِ كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: 28]، فأرادَ في هذه الآية الإحياءَ بعد أن كان النّاس أمواتًا، وأرادَ بالإماتة التي تكون بعد الإحياءِ الأوَّل.

بلاغةُ الطِّباقِ في: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

تقابُلُ الإحياءِ مع الإماتةِ يزيدُ الكلام حُسنًا ويدلُّ على كمال القدرة

جمع البيان القرآنيُّ بين لفظين متضادَّين، هما: ﴿يُحْيِۦ﴾ و﴿وَيُمِيتُ﴾ ممّا زادَ الكلام حُسنًا وطرافة، ودلَّ على كمال قدرته سبحانه التي تشمل الأشياءَ كلَّها وإنِ اختلفتْ؛ لأنَّ الفعل الصادر من العالم المختار يكون على أحوالٍ متضادَّةٍ، بخلاف الفعلِ المتولِّد عن سببٍ طَبْعيٍّ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/388.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَإِلَيْهِ﴾:

من بيدِهِ الإحياءُ والإماتـة بيده رجـعُ النّـاس وحسابهم

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عاطفةٌ؛ والمعطوف عليه ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، والمعنى العام الذي يجمع المعطوف والمعطوف عليه: هو أنَّ الذي بيده الإحياء والإماتة بيده رجْعُ النّاس وحسابهم، وإن كان لكلٍّ منهما ما خصَّه الله به، وميَّزه عن الآخر، فهو يحيي ويميت في الدُّنيا امتحانًا واختبارًا، وإليه ترجعون للحساب في الآخرة.

بلاغةُ التَّرتيبِ:

الأسبابُ مقدَّمةٌ عـلى الـنَّـتـائـجِ والـعـلـلُ على مظاهرِها

بدأ البيان القرآنيُّ في قوله: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالإحياءِ قبل الإماتةِ؛ لشرف الحياةِ، أي: شرف الحيِّ على الميِّت[1]، ولكون الإحياء أعجبَ وأكثرَ دلالةً على كمال القدرة، وخاصةً أنَّ السياق هو الاستدلال على ألوهيَّته سبحانه وقدرته.

وبدأ بالإحياء والإماتة، ثمَّ ذكر الرُّجوعَ؛ لأنَّ الإحياءَ والإماتةَ هما مقدِّمةُ الرُّجوع ودليلٌ عليه، فهي من باب تقديم العلَّة على النتيجة، ومن تقديم السَّبب على المسبَّب، والدَّليل على المدلول.

دلالةُ استعمالِ حرف (إلى):

الـحـيـاةُ مـبـدأ الـــرُّجـــوعِ والـــحـــسـابُ منتهاه

(إلى) حرف جرٍّ، ومعناه في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ انتهاءُ الغاية الزمانيَّة والمكانيَّة، وقد عُدّي بالفعل ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ لإفادة معنى الانتهاء في الرجوع إلى الله، أي: يرجع منتهيًا في رجوعه إلى الله؛ فلا مفرَّ ولا مهربَ منه إلا إليه سبحانه، وفي استعمالِ هذا الحرف براعةٌ لا تتحقَّق إلّا في كتابِ الله تعالى، وهي أنَّ ذكر حرف الانتهاءِ دلَّ على المبدأ، وهو الإحياءُ والإماتةُ، فلمّا ذكرَ مبدأَ الأمرِ بالإحياءِ والإماتةِ معًا؛ عطفَ عليهما الرُّجوعَ، وجعل ذلك بهذا الحرفِ الدّالِّ

(1) السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 1/131.

على استجماعِ أمر الحياةِ والممات لغايةٍ واحدةٍ وهي الرُّجوع إلى الله تعالى دون سواه.

غرض تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في: ﴿وَإِلَيْهِ﴾:

الـرجـوعُ إليه سبحانه حتمًا، وإليه دون سواه قهرًا

قدَّم القرآن الجارَّ والمجرور ﴿وَإِلَيْهِ﴾ على الفعلِ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لأمرين:

الأول: الاختصاص وقصر الرجوع إليه، أي: إليه وَحْدَه مَصيرُكم لا إلى غيره[1]؛ لأنَّه وعد بذلك في قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [يونس: 4]، وفي قوله: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: 46] وفي قوله: ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: 53][2].

الثاني: مراعاة للفواصل[3]، بما يحقِّق إحكامَ اللَّفظ وإحكامَ المعنى؛ أمّا إحكامُ اللفظ؛ ففي راحة النَّفس بإعطائها نغمًا متناسقًا مع ما سبقها من فواصل خُتِمت بالواو والنون، والواو من حروف المدِّ التي هي من الحروف الطبيعيَّة في الموسيقى نفسها، وأمّا إحكام المعنى؛ ففي تحقيق قصر الرجوع إليه، بتقديم شبه الجملة ﴿وَإِلَيْهِ﴾ على الفاصلة ﴿تُرْجَعُونَ﴾. ورعاية الفاصلةِ تابعٌ لرعاية المعنى لا العكس، فتقرير المعاني هو مقصودُ النَّظمِ، وأمّا الألفاظُ؛ فهي روادفُ الدِّلالاتِ وتوابعُها.

نكتةُ بناءِ الفعل للمفعولِ في: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

مقصودُ السّياق هو الاعتبار بما سيكون بعد مفارقةِ الدّار

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التَّعبيرَ بالمبني للمفعول على المبني للفاعل في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأمرين اثنين:

الأوَّل: التركيز على الحدث، وهو الرُّجوع إلى الله تعالى، وحصر الوعي فيه، الإشارة إلى أنَّ الرجوع إلى الله بعد الموت في الآخرة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/193، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/143.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/143.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/143.

بالبعث والحشر هو بيد الله وحده، ولا فاعل غيره سبحانه، وليس للإنسان أدنى إرادةٍ في ذلك.

الآخر: الاعتناءُ بذكر مجملِ هذا الأمر دون التَّفاصيل، فإنَّ العنايةَ بالتَّفاصيل تقودُ الذِّهنَ إلى الانشغالِ بها، عن المقصود الحقيقيِّ، وهو الاعتبار بما سيكون بعد مفارقة الدّار.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّجوعُ والعَوْدَةُ:

الرُّجوعُ انصرافٌ وانتقالٌ إلى المكان الأصلي، والعودةُ تكرارُ الرُّجوع بعد البدء

عند إمعان النَّظر في استعمال القرآن للّفظين نلحظ أنَّ كلًّا منهما قد اختصَّ بملمحٍ دلالي يميِّزه عن غيره.

فأمّا الرجوع في اللغة، فهو العَوْدُ إلى ما كان منه البدء، وتقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فالرُّجوع: العَوْد، والرَّجْعُ: الإعادة[1]، الرُّجوع: نقيضُ الذهاب، ورَجَعَ الشيءُ عن الشيءِ ورجع إليه: صَرَفَه ورَدَّه[2]، والرُّجوع أيضًا: تحوُّلٌ عن الاتِّجاه، أو الحال إلى عكسه، وكلُّ ما في القرآن من التركيب؛ فهو بمعنى العود[3].

وأمّا العَودُ فأصلٌ يدلُّ على تثنية في الأمر، هو تثنية الأمر عَودًا بعد بِدء، تقول: بَدَأ ثمَّ عاد[4]، والعودة: الرُّجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذات، أو بالقول والعزيمة[5]. عاد عَودًا وعَودة: رَجَعَ وارتدَّ، يقال: رَجَعَ عَودًا على بَدْء، ورجع عَوده على بِدئه: أي: لم يقطع ذهابه حَتّى وصله بِرُجوعِه، والمعاودة: الرجوع إلى الأمر الأول، والمُعاود: المواظِب على أمرٍ، وفيه معنى التجدُّد والتكرُّر[6].

(1) الراغب، المفردات، ص: 342.
(2) الفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رجع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رجع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).
(5) الراغب، المفردات، ص: 593.
(6) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عود).

إذًا: يتميَّز الرجوع: بأنَّ فيه معنى الانصراف والتحوُّل عن الاتجاه، أو الحال إلى عكسه، سواء أتمَّ الفعل أم لم يتمَّهُ، وفيه معنى الانتقال إلى المكان الأصلي.

وتتميَّز العَودة: بأنَّ فيها معنى تكرار الفعل، أي: لم يقطع ذهابه حتى يوصله برجوعه، كما أنَّ فيها معنى الرجوع إلى سابق عهده، ومكان بدئه.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»